هذا الراديو

بقلم الأستاذ سلامه موسى

قلت لأحد أصدقائى ونحن نستمع لجهاز الراديو الذى كان ينقل إلينا حديثا من لندن: أقدامنا فى مصر وآذاننا فى لندن ؟ ! فانتبه إلىّ فى تفهم و إدراك وقال : وعن قريب ستكون أقدامنا فى مصر وعيوننا فى لندن أو باريس .

هذا هو الراديو . يتحدث أو يتغنى فى باريس أو لندن أو روما فنلق إليه آذاننا ونسمعه ونحن فى القاهرة قد ثبتت أقدامنا على أرضها ، وعن قريب عند ما يتقدم التليفزيون سيكون فى مستطاعنا أن نسمع ونرى معا منظرا فى لندن أو باريس . وهذه الكليات التى ألقيها وأنا هنا فى القاهرة قد يرهف المستمعون آذانهم إليها فى مراكش والعراق وسوريا وطرابلس . حتى لقد صح القول إن عالمنا قد أصبح قرية يتسمع أحدنا فيها لكلام الآخر ولو كان بينهما ألف أو آلاف من الأميال ولكن هذه القرية لا تزال، مع الأسف ، تسير على خططها القديمة فى العداوة والشحناء وتقاتل وتحارب .

أجل إن هذا الراديو هو اختراع يشبه السحر فى معجزاته . ونحن ما زلنا فى بدايته لم نعمم استعماله والانتفاع به ولم نجمع بينه و بين السينما لا فى الدور العامة . على أن الزمن لن يكون بعيدا حين تجد حاسة السمع وحاسة البصر بهجتهما فى التلفزيون المنتظر .

والراديو يسمعنا الأغانى والألحان والأحاديث و يعدد لنا الموجات لكى نختار منها ما نشاء . ولكن تأملوا الآن ! إنكم بحركة صغيرة فى الراديو تستطيعون أن تسمعوا أعذب الألحان والأنغام من أى عاصمة شئتم ، ثم بحركة صغيرة أخرى تصمت هذه الألحان وتخرس هذه الموسيقا . ولكن هل صحيح ما أقول ؟ إن هذا الجو الذى يحيط بنا فى هذه اللحظة حافل بالأغانى المطربة والألحان المرقصة من جميع أنحاء العالم ولكنا لا نستمع إليها أى لا نحرك هذه الأكرة الصغيرة لكى تصل إلى آذاننا ! وإن فى هذا لمغزى .

هذا الهواء أو هذا الفضاء حافل بالطرب والفتنة اللذين سرعان ما ينطلقان لأقل رغبة أو حركة منه . وحولنا فى هذا العالم ألوان من السعادة والبهجة والحبور هى فى متناول أيدينا لو شئنا أن نحركها بالقلب المتفتح ونية الخير والبر وكل إنسان هو بمثابة جهاز الراديو تستطيع أن تحرك مفتاح ذهنه أو قلبه الحركة اللائقة فيجد الاستجابة الإنسانية للسعادة و لخير والبر .

أمر أحيانا بجانب بعض القهوات التى تغشاها عامة الفقراء فأجد منهم إنصاتا لحديث أو إعجابا بلحن . وهم يتسمعون إلى الحديث فى تفهم و إدراك كما يستمعون إلى اللحن

فى لذة وابتهاج . فأتساءل : هل لا تزال للقراءة قيمتها القديمة ؟ أولا يمكن أن نستغنى بالأذنين نسمع بهما أحاديث الراديو ونتلقى منه الدروس فى الجغرافيا والتاريخ والسياسة والاجتماع عن العينين نقرأ بهما الكتب والمجلات والصحف ؟ بالطبع لا . ولكن نقوا أن الأميين ليسوا كما كانوا قبل عشرين سنة يجهلون كل شىء ، لأن الراديو يعلمهم الآن عن طريق آذانهم بعض ماحرموا من تعليمه بالكتب والجرائد عن طريق أعينهم . أجل إن الأمية قد فقدت ظلامها وما أدرانا لعلها ستفقده أكثر فى المستقبل وخاصة عند ما يستحيل الراديو إلى تليفزيون نسمع بواسطته ونرى .

وإنى لأكاد أسمع القارئ يقول : حسبك هذا الثناء والمبالغة والإطراء ما هذا الراديو الذى تشيد به ؟ إنه إذا كان يمتعنا بالألحان والأغانى والأحاديث فانه ينكبنا بالدعايات . وهو ليس سفير السلام بين الأمم وإنما هو واسطة الخصومة ونذير الحرب يملأ الجو بالأكاذيب ويفترى الأباطيل ويعكر الصفاء .

ولست أنكر أننا نعيش فى فترة قد أخذت الدعايات فيها أوفر حظها وأن الميكروفون قد فعل فى فرنسا قبيل هزيمتها فعل المدافع والدبابات . ولكن هذه الفترة التى نعيش فيها هى الشذوذ ، أى شذوذ الحرب لقاعدة السلم . وأن السلم لابد عائد ، وعندئذ يخدم الراديو الحضارة والإنسانية ويصل بين الأمم بزيادة التعارف كما يقطع بينها الآن بزيادة الخصومة والتنالب .

ومع ذلك ليست كل دعاية سيئة . فهناك دعاية بارة هى دعاية الحرية وحقوق الأمم الصغيرة ، دعاية الحق والعدل والمساواة ، دعاية الديمقراطية التى يجب أن تسود العالم وأن تعلن فى غير وجل حقوق الإنسان .

والراديو فى مصر ليس تجارة حرة كما هو الشأن مثلا فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث تتراحم الشركات وحيث تعيش بما تعتمد عليه من أجور الإعلانات ، فإن المستمع فى نيويورك مثلا يفاجأ فى عقب الحديث أو بين لحنين موسيقيين بإعلان عن صبغة جديدة للشعر أو أحذية متينة أو "فساتين" من زى جديد لهذا المتجر أو ذاك . ولكننا فى مصر لا نرهق آذاننا هذه الإعلانات لأن الشركة التى تقوم بالإذاعة هى مزيج من العمل الحكومى والعمل الحر على نحو النظام القائم فى انجلترا . وكان يجب أن يكون فى هذا الائتلاف بين الحكومة والشركات مجال للتحسن المطرد والتوسع المتزايد أى أنه كان يجب مثلا أن يجد التلفزيون تجاربه الأولى فى القاهرة قبل أن تخلو قرية من جهاز استقبالى . بل إنى أعتقد أنه مادامت الحكومة شريكة فى هذا الجهاز العجيب فإنها يمكنها أن تتفق مع بعض المصانع على إيجاد جهاز صغير رخيص يمكن تعميمه فى بيوت الفقراء ريفية ومدنية ، كما أنها بحكم شركتها هذه يجب أن

تتفق مع محطة الإذاعة على ترقية الأغانى والألحان وعلى أن تكون الأحاديث موجزة منيرة بعيدة عن الإسهاب الممل يقصد منها إلى فائدة المستمعين بزيادة معارفهم وتنويرهم عن الحوادث العامة وما يجرى فى ميدان العلوم التى كثيرا ما يجهلها سواد الجمهور فى مصر .

وهنا نذكر بعض ما تقوم به الأمم الأخرى . فهناك فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية تأسست فرق للدرس عن طريق الاستماع . ففى كل ناد وفى كل جمعية بل فى كل كلية ومدرسة أنشئت الفرق التى تجتمع فى وقت معين لاستماع الأحاديث عن السياسة الخارجية أو الداخلية أو عن الآداب أو العلوم . يقعد أفراد الفرقة وهم يبلغون العشرة أو العشرين من الأعضاء فيستمعون للحديث ومع كل منهم مفكرته يدون فيها ملاحظاته حتى إذا انتهى المحدث تناول الأعضاء حديثه بالشرح والنقد والتعليق فتزيد قيمة الحديث ويستنير الجميع بتبادل الآراء . بل هم يبعثون أحيانا بملاحظاتهم إلى صاحب الحديث لكى يجيب على بعض أسئلتهم أو يوضح بعض الغموض أو يزيد فى الشرح لبعض النقط الغامضة . ومحطة الإذاعة تنتفع بهذه الفرق وتشعر أنها باتصالها بها تضع يدها على نبض الجمهور وتتعرف حاجاته وتقف منها على الأساليب المثلى فى التفهيم والتنوير . وأنا أدعوكم أيها الأعضاء فى جمعيات الشباب وأيها الطلبة فى الكليات والتلاميذ فى المدارس إلى أن تؤلفوا هذه الفرق وتجعلوها وسيلة للدرس ونقد المحدثين وتوجيههم للمنفعة العامة .

إن الفراغ يزداد بين جميع شبابنا المتعلمين . ومنذ نصف النهار إلى صباح اليوم التالى يكاد موظف الحكومة فى القاهرة يقضى وقته فى بطالة قهرية ، وهو يلجأ إلى القهوة أو إلى النادى ، وقد يلجأ إلى مفاسد أخرى . ولكن إذا كان فى البيت جهاز حسن للاستقبال فإنه يغرى بالبقاء بالمنزل مع زوجته وأولاده يستمعون معا ويشتركون فى التسلية واللهو . والفراغ مثل كل خواء يحتاج إلى ما يملؤه ويشغله . ولا نستطيع أن نطلب من شبابنا أن يتركوا التسليات السيئة ما لم نقدم لهم التسليات الحسنة . فاذا عنينا جمهورا وحكومة وشركة بالراديو وساعدنا الجمهور على اقتناء الأجهزة الرخيصة المتينة وساعدنا الشركة على ترقية البرامج وساعدتها الحكومة على إجراء الأبحاث والتجارب فان الراديو عندئذ يصبح من السلويات السامية التى تشغل الفراغ وتصد عن المفاسد وتربط بين أعضاء العائلة وتنير الذهن وتبهج القلب ، بل يصبح الراديو عندئذ أعظم مكافح للأمية دون أن يكلف الأميين تعلم القراءة والكتابة .

إن الراديو ، على وفرة ممكناته الحاضرة ، لا يزال فى بدايته وهو من المنتجات الكهربائية التى مازلنا نجهل مستقبلها الخطير . وليس اليوم ببعيد حين تغدو هذه القوة الكهربائية الخادم الوحيد فى منازلنا تكنسها لنا وتطبخ طعامنا وتكيف هواءنا وتغسل ملابسنا ، بل تحلق لحانا . وهى تفعل كل ذلك الآن فى بعض البيوت المترفة . ولكن فى الترف عادة وسجية تلازمه ، فهو ينشأ أرستقراطيا يستأثر به الأغنياء ثم لا يزال ينبسط ويستفيض حتى يعود ديمقراطيا يقتنيه الفقراء . فقد

كان الزجاج ، حتى زجاج النوافذ ، من مقتنيات الترف إلى عهد قريب . وكان ساكن المنزل ينزعه من النوافذ إذا انتقل من منزل لآخر . وقبل ثلاثين سنة كان المصباح الكهربائى فى القاهرة بدعة غالية لا يقتنيها غير الأغنياء . وكان لا يشترك فى التليفون غير المتجر أو المكتب الكبير . ولكن رويدا رويدا ينحدر الترف إلى بيوت المتوسطين ثم إلى بيوت الفقراء . فنحن نقتنى الراديو فى بيوتنا ولن يبعد الزمن الذى يتحقق فيه لنا استخدام القوة الكهربائية فى اقتناء سينما خاصة ، بل فى اقتناء تلفزيون يجمع بين الراديو والسينما فضلا عن تنظيف بيوتنا وغسل ملابسنا وطبخ طعامنا وتبريد الهواء وتدفئته بالقوة الكهربائية .

وظنى أن هذا الزمن ليس بعيدا ؛ بل ليس بعيدا أن تستخدم مساقط المياه فى أسوان فى إضاءة منازلنا وطبخ طعامنا فى القاهرة ؛ وقد استطردت إلى شرح بعض الممكنات الكهربائية ، لأن الراديو والسينما كلاهما من محصولات هذه القوة العجيبة . وكلما ازددنا تمكنا من هذه القوة وتعودنا إلى أسرارها ازداد الراديو رقيا حتى ينتهى إلى الكمال المنشود فى التلفزيون حين نرى فى بيوتنا أشخاص المتكلمين أو المغنين أو الممثلين ونسمع أحاديثهم وأغانيهم .

بل ماذا أقول ؟ هل بعيد أن يحمل أحدنا فى يوم ما جهازا صغيرا للجيب يستطيع أن يخاطب به وهو فى البيت أو فى الطريق صديقا له فى الاسكندرية أو فى بغداد ؟ ألا ما أبهج وأجمل هذا الأمل ! إننا عندئذ لنشكو قلة الفراغ – هذا الفراغ الذى يثقل علينا فنتخلص منه بسلويات مختلفة قد لا تكون كلها بريئة .

لقد نصحت بإنشاء الفرق فى الأندية والمدارس لدرس الأحاديث والتعليق عليها ، والآن أدعو كل مستمع إلى أن ينشط ويبدى ملاحظاته للمحطة حتى يكون هناك تفاعل بين الجمهور والمحطة ، وهذا من حقك أيها المستمع ولو كنت أميا لا تعرف القراءة لأن على المحطة ألا تنسى واجبها نحوك أنت الذى لم يسعدك الحظ بتعلم القراءة والكتابة ، بل إن حقك أكبر من حق القارئين لأن هؤلاء متعة القراءة ، أما أنت فليس لك غير أحاديث الراديو التى تصل بينك وبين التفكير العالى ، قل أى الموضوعات تحب وكم دقيقة تحب أن يكون الحديث ؟

إن فى العالم من ألوان الرقى الاجتماعى والاقتصادى ومن مبتكرات العلوم والفنون ما يجب أن يقف عليه جمهورنا سواء منه المثقف وغير المثقف ، وهذا ميسور إذا نشط أفراد هذا الجمهور وأوضحوا رغباتهم للمحطة ، والراديو هو مدرسة وملهى للجميع ، فعلى ربة البيت كما على الفتاة ، وعلى الرجل المثقف كما على الرجل العامى أو الأمى ، وعلى التلميذ كما على الموظف ، أن يتصلوا بالمحطة ويعينوا ما يحبون من ألوان الجد واللهو والدرس والتسلية معا

سلامه موسى